نظرات
في تاريخ الإسلام

للعلامة دوزي مترجمة بقلم الأستاذ كامل كيلاني

« وأشترط على نفسي أن لا أتعرض
لذكر ما أعتمده ، فيما أجده مخالفاً لما أعتقده
فان التقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد »

« فخر الدين الرازي »

(٢)

زد على ذلك أن الاسلام — وان لم يلق معارضة قوية أثناء فتوحاته المتوالية المظفرة — فان سراة مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذى أحرزوه ، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذى أراد الموحدون أن يبسطوا ظله عليهم .

ولقد كانت تقوم المنازعات والشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة ، وهى فى حقيقتها وجوهرها غير ذلك فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكأة يبرر بها غايته من الشغب .

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان ، ثالث الخلفاء ، حين تولى الخلافة بعد وفاة عمر (٦٤٤م) وكانت سن عثمان حينئذ سبعين عاماً ، وكان حليما لين العريكة ، ضعيف الارادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بنى أمية . أى أنه كان ضعيف الارادة أمام كل من ناصبوا محمدا العداء عشرين عاماً ، فلما أسلموا كان فى اسلامهم مجال واسع للظنون

والحذر، ولقد نالوا بفضل « عثمان » أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل المسلمين خليفتهم الشيخ المسن « عثمان »

ثم ولى الخلافة من بعده « على » ابن عم « محمد » ولكن لم يتم الاعتراف به فى كل مكان. فقد هبت سوريا متحمسة إلى امتشاق الحسام — وعلى رأسها واليها « معاوية بن أبى سفيان » وكان انتصاره حينئذ انتصار جمهرة المعادين للاسلام، الذين كانوا يناوئونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم، فقد أشعلوا نيران الحرب من جديد فى زمن « يزيد الأول » ابن معاوية الذى ولى الخلافة من بعده. ولقد قام « الحسين » وهو الابن الأصغر لعلى، يطالب بالخلافة، ولكنه صرع — وهو وفئته القليلة التي كانت تناصره فى موقعة كربلاء. (١)

ومن ثم قام « عبد الله بن الزبير » — وهو ابن صحابى من صحابة الرسول — إلى مكة رافعاً علم الثورة، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة. ولا يلتفت اليه استصغاراً لشأنه. ذلك أنه لم يغادر مكة إلى غيرها من البلدان فلم ير له الخليفة خطرا يستحق أن يناوئه من أجله. ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل بلا حاجة، فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى أراقة الدماء فى بقاع كانت — حتى فى زمن الوثنية — حرماً مقدساً لا يمسه أحد بسوء.

ولكن لكل شىء حدا. فقد صبر يزيد حتى عيل صبره، فلما لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب إلى عبد الله بن الزبير — المرة الأخيرة — أن يبايعه، فلما رفض امتزج الخليفة بالغضب وأقسم أنه لن يقبل من هذا الثائر طاعة حتى يؤتى به بين يديه مكبلا بالأغلال. ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه — وكان طيب السريرة — ففكر فى وسيلة يبر بها فى قسمه دون أن يمس كبرياء « عبد الله »، ثم استقر على أن

---

(١) وفى ذلك يقول الكميت:

يحلئن من ماء الفرات وظله حسينا، ولم يشهر عليهم منصل
كأن حسينا والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلى المتبقل!

« المترجم »

يرسل اليه غلا من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفيه تحتها اذا شاء ، وبعث اليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة ، فساروا من مقر ملكه « دمشق » حتى بلغوا « مكة » ولكن عبد الله رفض — بطبعه — أن يقبل تلك الهدايا ، وعبثاً حاول الرسل أن يتوصلوا إلى اقناعه وانزاله عن رأيه . فقد أصر « عبد الله » على عناده لأنه كان يعتقد أن كائناً من كان لن يفكر — بحال ما — أن يلجأ إلى العنف والشدة معه وهو فى تلك البقاع المقدسة . وكان هذا سر طمأنينته ، وقد أكد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل .

على أن « عبد الله » لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته ، فقد سبقه إلى ذلك ثوار « المدينة » . وكانت روح الثر مهيمنة عليهم فى ذلك الحين ، فقد وقعت بينهم وبين الوالى — حينئذ — خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضى ، وأراد الوالى إزالة أسباب الخلاف — وكان من ابناء خؤلة الخليفة يزيد — ، فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة ، فلما ذهبوا ، قابلهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة فى أن يستميلهم اليه ، ولكن يزيد كان — رغم أدبه ونبله — غير مشبع بروح احترام الدين الذى كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم فبدرت منه آراء — عن غير قصد — صدمت بعض أصول الدين التى يقدسها أهل المدينة . فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بالخليفة ويذمونه عند مواطنيهم متأثرين بعامل الغضب ، فقالوا لهم — : انه يشرب الخمور ويعزف على الأوتار ويصرف نهاره بين كلاب الصيد (وقد كان محمد يمقت ذلك أشد المقت) فاذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق » — يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع فلما كبر أدناهم من مجلسه

وزادوا على ذلك أنه لا يصلى قط وأنه جاحد ، وعزوا إليه فوق هذه التهم التي بنوها على أساس — واه أو متين — تهما أخرى لا أساس لها ولا وجود ، وإن كان ذكرها مما يثير فى نفس خصومه من أهل المدينة حفائظ وأحقادا بعيدة الأثر وكانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تلصق بكل أموى

ومن ثم انقلب المسجد مسرحاً عجيبا تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباع يزيد

واجتمع أهل المدينة قاطبة وهم صاخبون فشرع كل واحد منهم يتجرد من شيء من ملابسه فيلقى به صائحا — :

« إنى أخلع يزيد كما أخلع قبائى هذا »

أو « عمامتى »

او « نعلى »

ثم طردوا كل من فى المدينة من الأمويين ووقفوا عن تعيين خليفة جديد لهم فقد كان القرشيون الذين فى المدينة لايحبون أن يعترفوا بأهلها ، كما كان أهلها كذلك لايحبون أن يعترفوا بهم

فقر رأيهم على أن يتريثوا فى تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد !

واستحوز عليهم عداء جنونى لايحدوه رشد فلم يتبصروا ، عواقب هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الأمبراطورية الاسلامية العظيمة كلها

ولقد حاول عبثاً أحد المدنيين — وكان قد عاش فى بلاط الخليفة ، ثم أوفده سيده إلى المدينة — أن يبين حقيقة الخطر لمواطنيه فقد أعماهم الغضب فأصبحوا لايعيرون الناصحين التفاتا ولايصيخون إلى أية موعظة تقدم اليهم بحسن نية

***

وحينئذ رأى الخليفة أنه مضطر إلى الالتجاء إلى القوة فأرسل إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى « مسلم » — وكان « مسلم » أقرب إلى الوثنية منه إلى الاسلام — فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها ، فاذا أبوا أن يخضعوا — بعد ذلك — هاجمهم ودمر مدينتهم تدميرا فى ثلاثة ايام أخرى ، ثم ليأخذ على من فيها المواثيق بأنهم عبيد يزيد وليقسموا على ذلك فاذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته

ولم يكد يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا ثائرين أنفة من الخضوع وأعدوا عدتهم للقاء العدو وجاهد الفريقان بشدة وصبر نادرين (وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٣ م) وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة ، وكان أهل المدينة متحمسين تذكى فيهم الحرارة والقوة تعصبهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون وأن أعداءهم — من جيش سوريا — هم عند الله كالوثنيين سواء بسواء ، وكانوا على يقين

من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات و باؤا بغضب من الله ، أما هم فانهم سا لكون ـ بلا شك ـ مسالك الشهداء والأبرار

و بقى مصير الحرب معلقا فى كف الأقدار ز مناً طو يلا حتى كشفت الخيانة عنه، فقد ا ر تشت أسرة من المدنيين ففتحت أحد أبو اب المدينة لفرقة من جيش العدو ، فدخل السور يون وسمع أهل المدينة من خلفهم فجأة صيحات النصر من أفواه السور يين، فضاع كل أمل لديهم فى الفوز والغلبة، و أصبحت المدينة فى قبضة العدو و صار كل هجوم عبثا ومستحيلا، على أن جمهرتهم لم تفكر فى الخطر المحدق بها فهجم أهل المدينة على أعداتهم فرادى و باعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به!

و كان من بين القتلى سبعمائة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حار بوا مع النبى قد حارب بعد أن نصروه فى حرب بدر على المكيين ، حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم

و دخل « المدينة » فرسان سوريا فلما لم يجدوا مكانا يربطون فيه خيلهم ربطوها فى مسجد المدينة بين جدث النبى و كرسيه، أى فى نفس المكان الذى طالما سماه النبى نفسه جنة من جنان الفردوس

ثم نهبوا المدينة فى ثلاثة أيام وسبوا كل من فيها من نساء وأطفال . ولم ينج أحد ممن بقى من أهلها ــ فقد فر أكثرهم ــ الا بعد أن أقسم أن يكون عبدا من عبيد يزيد و هكذا أقسموا جميعا على أن يكون الخليفة سيدهم و مولاهم وأن يكون فى حل من التصرف فيهم بما شاء من عتق أو بيع ، كما أقسموا أن يكون له الحق فى كل ما تملك أيمانهم من نساء و أولاد وأر واح

و لما رأى أبناء مؤسسى الاسلام أنهم مضطهدون معذبون و أن بنى أمية قد أر هقوهم إر هاقا ، لم يجدوا أمامهم و سيلة غير المهاجرة ، فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا الى جيش افريقيا ، وقد انضم أغلبهم ــ فيما بعد ــ الى جيش العرب فى أسبانيا .

و كان « مسلم » مكلفا أيضا بأخضاع مكة، ولكن الموت عاقه عن تحقيق إر بته : فأخذ « الحسين » (و هو احد رجال جيشه) على نفسه أن يحقق ذلك . فتولى قيادة الجيش

بدأ يحاصر مكة و يقذف الكعبة بالحجارة والصخور حتى حطم عمدها وقواعدها ثم نجح أخيرا فى احراقها جملة. و لقى الحجر الاسود فى هذه المرة أول نكبة حاقت به لأنه لم يطق مقاومة النار فتحطم أربعة أجزاء :

* * *

على أن مكة لم يتم اخضاعها . فقد حال دون ذلك موت يزيد و ما أعقبه من الفوضى التى اضطرت الجيش الى رفع الحصار و الرجوع بالجيش توا الى سوريا وبهذا استعاد «عبد الله بن الزبير» قوته واستتب له أمر الخلافة فى مكة و خارجها أيضا

ولكن الأمويين مالبثوا أن تم لهم الامر من جديد بعد أن تولى الخلافة «عبد الملك» : و خضعت البلاد كلها و لم تبق الا مكة وحدها ثائرة وفيها عبد الله بن الزبير. فلما رأى «عبد الملك» ذلك و جه اليها جيشا بقيادة الحجاج، فذهب الى تلك البقاع المقدسة . و حاصر المدينة و طفق يرمى الكعبة بالصخور و الحجارة ليدكها دكا و بينما كان يقذفها بالنار ـ ذات يوم ـ هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثني عشر جنديا فرأى الجيش فى ذلك عقاباً من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس . فأحجم رجال الحجاج وكفوا عن ذلك

فاغتاظ الحجاج وخلع بعض ملابسه وتقدم الى المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه . ثم حرك حباله بعد ذلك وهو يقول ـ : «لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ماحدث هو مافهمتموه. ألا إننى لخبير بطبيعة هذه البلاد ففيها ولدت وقد رأيت لهذه العاصفة أشباها لايحصى لها عد !»

وظل يشدد الحصار عليها بقوة عدة أشهر . ثم أخذت المدينة بعد أن مات عبد الله بن الزبير (١) سنة ٩٦٢ م.

«للكلام بقية»

---

(١) مصرع عبد الله بن الزبير

(١٧ جمادى الاولى سنة ٧٣ ﻫ)

جمع القرشيين فى الليلة التى قتل فى صبيحتها فقال لهم : «ماترون ؟»، فقال رجل منهم :

«والله لقد قاتلنا معك حتى مانجد مقاتلا

و الله لئن صبرنا معك مانزيد على أن نموت معك إنما هو إحدى خصلتين

إما أن تأذن لنا فنأخذ الامان لأنفسنا ولك ،وأما أن تأذن لنا فنخرج ،

فقال عبد الله :

« قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد ، فأقيله بيعته » فقال رجل آخر :

« اكتب الى عبد الملك

فأجابه :

كنت أكتب اليه : « من عبد الله أمير المؤمنين »

فوالله لا يقبل هذا مني أبدا

فأكتب اليه: « لعبد الملك أمير المؤمنين . من عبد الله بن الزبير »

فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء ،أحب الي من ذلك »

* * *

قال عروة أخوه :

« يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة »

فقال له : « من هو أسوتي »

قال « الحسن بن علي بن أبي طالب ، خلع نفسه وبايع معاوية »

قالوا: فرفع رجله وضرب «عروة» حتى القاه، ثم قال :

يا عروة! قلبي اذن مثل قلبك ، والله لو قبلت ماتقولون ، ماعشت الا قليلا وقد أخذت الدنية ، وماضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط ، لاأقبل شيئاً مما تقولون ! »

فلما أصبح دخل على بعض نسائه ، فقال :

« اصنعي لي طعاما »

فصنعت له كبدا وسناما

فأخذ منها لقمة ، فلاكها ساعة ، ثم لم يسغها ، فرماها وقال : اسقوني لبنا

فأتي بلبن فشرب ثم قال : « صبرا ،على غسلا »

قالوا : فاغتسل ثم تحنط وتطيب

ثم تقلد سيفه ، وخرج وهو يقول .

« ولا ألين بغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق «وهي عمياء من الكبر، قد بلغت من السن مائة سنة»، قالوا «فدخل عليها وسلم، فقالت! من هذا فقال «عبد الله» ثم قال «ماترين! قد خذلني الناس، وخذلني أهل بيتي» فقالت

«يابني! لايلعبن بك صبيان بني أمية، عش كريما ومت كريما» فقال: «ان الحجاج قد أمنني» قالت «يابني! لاترض الدنية، فان الموت لابد منه»

قال: «إني أخاف أن يمثل بي»

قالت: «ان الكبش اذا ذبح لايؤلمه السلخ»

قالوا: «فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام فهزمهم وهو يقول:

«ويل امه فتح لو كان له رجال»

فجعل الحجاج يناديه

«قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم»

قالوا:

فجاءه حجر من حجارة المنجنيق وهو يمشي فأصاب قفاه فسقط»

فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكي وتقول «وا أمير المؤمنين»

فاحتزوا رأسه فجاؤا به إلى الحجاج ثم بعث به إلى عبد الملك.

قالوا: وكان الحجاج قد رأى في منامه كأنه يسلخ عبد الله بن الزبير فلما قص ذلك على عبد الملك بن مروان قال له عبد الملك «أنت له فاخرج اليه» «المترجم»

اطلب كل ماتحتاجه

من مكتبة

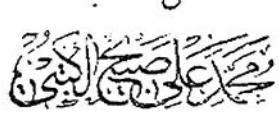

بالازهر الشريف

بالقاهرة